

الأديان بين التفسير والتبوير

الاستاذة نادية الوافي

كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط

جامعة محمد الخامس . أكڤال -المغرب

البريد الالكتروني : amiranadia64@gmail.com

الملخص

في جميع الأديان هناك اتجاهات تعتقد أن تفسيرها للنص الإلهي هو الذي يكشف المعنى المطابق للمراد الإلهي ففي جميع الأديان ظهرت هناك نوع من الحرفية في التعامل مع الوصايا والأحكام الإلهية.

إن النص الديني باعتباره مصدرا إلهيا يتميز بالامتداد التاريخي ، لأنه يحمل القيم والمبادئ

فالتأويل البشري للنص مهما ترقى في استعمال العقل، لن يطمس الحقيقة الدينية وإنما سوف يبرز الوجه الحقيقي للإسلام والأديان الأخرى .

Résumé

All religions include tendencies that believe that their interpretation of the divine text discloses the equivalent significance of the divine message. In all religions, some expertise in the treatment of recommendations and divine dispositions is apparent.

The religious text, being a divine source, is characterized by the extension in time, because it conveys major values and principles which mankind needs, as long as Man aspires to rise in human perfection. Therefore, the human interpretation of the text, regardless of the level of progress achieved in human reason cannot veil the divine truth, but reveals the true face of Islam and other religions.

مقدمة :

هل نحن اليوم أمام عالم يتوزع دينيا وينبئ بصراعات حضارية، ترسم مسيرتها وحدودها الخلافات والتعدييات الدينية ؟
أم أننا نتطلع إلى عالم تأخذ فيه الأديان فعالية تجعل من هذه التعددية ثقافة للحرية والمنافسة الشريفة والتسابق على الكمال والخدمة الاجتماعية ؟.
كان البعض يظن أن الأديان ذاهبة إلى الأفول. ولكن ازدياد الطلب على الروحانية واضح، كما أن السعي وراء المعاني الأبدية يتعظم في زمن الاستهلاك والتبدلات السريعة. أضف إلى ذلك الرغبة في بناء الأخلاق الإنسانية على معالم ثابتة.

أضف إلى ذلك أن البحث عن الهويات الشخصية في دنيا العولمة اليوم، طرح الدين كالحل الأفضل، حيث أن بعض المعطيات الأخرى كالأحزاب والعلم والنقابات لم تنجح في أخذ دور التعبير عن الهوية. وهذا يحق بنسبة أقل على المفاهيم القومية. إن الانتماءات الدينية تحافظ لشعوبها على الخصوصية وتنقذها من الذوبان والانصهار في ثقافة العولمة.

هكذا لا يبدو أن مستقبل الأديان متأثر كثيرا لا بالعلماء ولا برجال السياسة ولا بما راج من علوم إنسانية، ولا حتى برجال الدين ذاتهم، حيث أخذ التعلق الديني دور الإجابة على المصادقية مقابل الالتواء السياسي عامة، وعلى القيم الثابتة أمام المتبدلات العلمية، وعلى العطش الإنساني مقابل التشريعات الاجتماعية الواهية والسطحية.

وأقصد بالاتجاه التفسيري التبريري الاتجاه المعرفي الذي ينظر إلى النص على أنه مجموعة من الدلالات التي تم اكتشافها في الماضي، ولهذا فالمطلوب، هو اتباع التأويلات السابقة التي حررها السلف، فمهمة المؤمن أمام النص هي التذكروليس التفكير، كما يعتقد هذا الاتجاه بأن هناك أصولا ومصادر أخرى للدين غير النص المقدس، وهنا يكمن مقصد التسمية.

وأكرر الإشارة إلى أن إطلاق مصطلح التبريري لا يحمل أية قيمة سلبية في سياق هذا العرض، فالتناول سوف يتخذ وجهة معرفية، بعيدة عن أي حكم قيمة أو موقف تقييبي. فظاهرة الاختصار على المقولات الدينية التي أنتجها جيل الأسلاف، ظاهرة إنسانية تعرفها جميع الثقافات لأنها مرتبطة بموقف فلسفي من الوجود

والمعرفة وكذا التاريخ، وسأحاول في هذا العرض أن أسبر غور هذه الظاهرة بمقاربة معرفية، تتوخى الوصول إلى بعض من خصائص هذه الظاهرة على مستوى تكوينها للمواقف وصياغتها للمبادئ.

المبحث الأول : التفسير التبريري : الأساس والخاصية

المطلب الأول: الأساس المعرفي

لقد عرف تاريخ الأديان، ظهور العديد من الطوائف والجماعات بين أتباع كل دين، ويبدو أن القطبين اللذين يشكلان المساحة الأكبرهما : القطب العقلي والقطب النقلي، وهما في العمق موقفان معرفيان من التأويل، فالطائفة العقلية تذهب إلى حرية العقل في تأمل النص واستخراج مكنوناته، بينما الطائفة النقلية تتوقف عند تأويلات السلف، وتحرم القول في النص بمجرد العقل، وتعتقد في كفاية وإطلاقية تأويل مرحلية للدين لكل التاريخ، بل وتساوي بين التأويل والنص، وبالتالي تنفي التاريخ والإنسان، بل وتقتل تاريخية الإنسان ومطلقية النص... وهذا ما يجر إلى تأليه المؤول / الإنسان، وبالتالي صناعة الأمة / الإله : أي صاحبة التأويل المطابق للحقيقة الإلهية : الناطقة باسم الله...

ففي جميع الأديان، هناك اتجاهات تعتقد بأن تفسيرها هو الذي يكشف المعنى المطابق للمراد الإلهي من النص المقدس، فعند الديانات الثلاث ظهر نوع من الحرفية في التعامل مع الوصايا والأحكام فنجد القتالية الخوارجية الإسلامية، والطقوسية الكاثوليكية والصهيونية اليهودية...

و قد فهمت النصوص الداعية للقتال، والتي جاءت في سياق بعث الدين الجديد عن المشروعية الواقعية بعد أن استنفذ آليات وأساليب الحوار مع المخالفين، فهمت تلك النصوص على أنها دعوة للمحافظة على أوضاع الحرب والقتال قائمة... وفهم عدم موالاة الكفار – الذي كان يقصد التميز الاجتماعي والسياسي الضروري واللازم، من أجل بناء هوية المجتمع المؤمن الناشئ وسط الشرك والوثنية – على أنها مقاطعة تاريخية دائمة للمخالفين في الاعتقاد، ولكي

ندرك مدى سطوة هذه التفسير على النص نفسه، نتأمل موقف القرآن من أهل الكتاب الذين دعا النص القرآني للزواج منهم ؛ بما يعنيه ذلك من الحب والنسب وتمازج العلاقات الاقتصادية والاجتماعية، لكن لازالت العلاقات الإسلامية - الكتابية مؤطرة بالتوجس والعداء والتكفير، استجابة لتأويلات دينية للنص مشحونة بالطائفية والانغلاق واللاإنسانية، موروثه عن لحظات تاريخية متجاوزة.

فالتفسير التبريري ذو موقف متوجس من المنطق بما هو إعمال للعقل في النص، وهنا يفهم العداء الشديد الذي واجهه العقل الكلامي خصوصاً المعتزلي في تاريخ الفكر الإسلامي، وكذلك الموقف من ابن حزم الذي بين أهمية قوة التمييز >> التي سماها الأوائل المنطق <<⁽¹⁾ والتي بها تصل النفس الإنسانية >> إلى فهم خطابه عز وجل <<⁽²⁾، فقد هوجم ابن حزم وقوبلت تصانيفه >> بالإغفال والترك حتى أنها ليحظر بيعها بالأسواق <<⁽³⁾.

ولقد نتج عن اقتصار التفسير التبريري على اللغة وحدها في اكتشاف دلالات النص المقدس : سقوطه في تأويلات لا تاريخية ولا إنسانية في أحيان كثيرة، سببها أن المعاني لا تتجلى >> لمجرد إدراك معاني المفردات المكونة للنص... وهذا يعني أن ألفاظ نص ما، قد لا تستغرق الذات الكلية له، تماماً مثل ما إن لبنات البناء المكونة لهيكله، ليست هي الكيان الكلي المكتمل. لقد صارت للبناء كينونة أوسع من لبناته المترصة، وكذلك النص، له كينونة أوسع من هيكله اللفظي، إن له بناء كلياً ليس

¹ - نفسه.

- ابن خلدون، المقدمة، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1986، الفصل 7 من الكتاب 1، ² ص : 283.

- عبد الجواد ياسين، السلطة في الإسلام، : 44. ³

مرادفا لحاصل جمع المفردات، وله أبنية داخلية هي الحدود المنطقية، ليست مرادفة للتركيبات النحوية، وله علاقات بين هذه الأبنية أو الحدود بعضها ببعض، وله علاقات بين هذا كله وبين الواقع الخارجي على مستويات الزمان الثلاثة : الماضي والحاضر والمستقبل^{<(1)>}.

المطلب الثاني : الخاصة : محاصرة "التاريخ" للدين

إذا كان التأويل الديني المسيحي، قد أخضع الإنسان لوزر الخطيئة الأصلية / خطيئة آدم التي سلبت مطلق الإنسان حريته منذ ولادته. فإن التفسير التبريري الإسلامي قد أخضع الإنسان لخطيئة ووزر تاريخي، هو >> ووزر الفتنة الكبرى، إذ أن الرغبة في اتقاء الفتنة الكبرى قد برر على الدوام قبول العيش باستكانة تحت الحكم الذي أصله فتنة!^{<(2)>}، هذه الاستكانة التي أثرت على تأويل النص الديني عند المسلمين وأخضعته للتاريخ ولمصادر تاريخية نسبية، ورغم أن من المقاصد الكبرى للنص القرآني >> تحرير الإنسان من جميع السط الأرضية<< وهذا هو مقتضى التوحيد، فإن التاريخ خصوصا السياسي منه – وهو في السياق الإسلامي كان المهيمن على الحياة : فالأمير كان هو الإمام – قد فعل فعله في تأويل النص القرآني >> لقد فعلت السلطة كثيرا في التاريخ، وفعل التاريخ كثيرا في العقل، وبشكل مباشر وغير مباشر صار العقل المسلم أسيرا للفعلين كليهما، لفعل السلطة في التاريخ أي ل "تاريخ السلطة"، ولفعل التاريخ في العقل أي ل "سلطة التاريخ". فأما تاريخ السلطة فقد أورث هذا العقل، خضوعا شبه كلي للحكومة بالمعنى المطلق. وأما سلطة التاريخ فقد أورثته خضوعا شبه كلي للماضي، بالمعنى المطلق كذلك^{<(3)>}.

- أركون الفكر الإسلامي، نقد واجتهاد، ترجمة وتعليق، هاشم صالح، دار الساقي،¹ بيروت ولندن، ط3، 98، ص : 19.

- محمد عابد الجابري، العقل الأخلاقي العربي، العقل الأخلاقي العربي : دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم الثقافية العربية، دار النشر المغربية، ط1، 2001، 230.

- مرجع سابق، عبد الجواد ياسين : 8.³

من المسلم به أن النص المطلق الذي تنزل في لحظة، تحكمت في تأويله كل مظاهر اللحظة : لغة، وسقفا معرفيا، وثقافة السلف الصالح، لكن التأويل الأصولي يتناسى مع التشابك بين الإفهام والتاريخ، فيحول هذا التأويل، الفكرة الاجتهادية النسبية إلى عقيدة مقدسة "فوق تاريخية"، وبعد أن كان جوهر النص هو فضح سياقات التسلط الإنساني في الاعتقاد والسياسة والمعرفة... أصبح نفسه خاضعا لتسلط السياقات البشرية والفهوم النسبية.. وبقدر ما هو تاريخي أي ينتمي إلى الماضي بقدر ما هو لا تاريخي لأنه مغلق ودوغمائي وإطلاقي غير قادر على تفهم اللحظة الراهنة، مما يطرح التساؤل

» ما الذي يجعل من "عبارة ما" تراثية، "دينا"، ومن أخرى تنتمي لنفس التراث "هرطقة"؟⁽¹⁾.

إن النص الديني باعتباره مصدرا إلهيا، يتميز بالامتداد التاريخي، لأنه يحمل القيم والمبادئ الكبرى التي تحتاجها الإنسانية مادام الإنسان يطمح إلى أن يرتقي في سلم الكمال الإنساني، ولهذا فالتأويل البشري للنص مهما ترقى في استعمال العقل، لن يطمس الحقيقة الدينية وإنما سوف يبرز »الوجه الحقيقي للإسلام ذلك الذي يقدمه النص الخالص بريئا من بصمة الجغرافيا والتاريخ«⁽²⁾.

إن الكثير من التأويلات النسبية والتاريخية للنص قد أبداها العقل الإسلامي بحجة الإجماع، هذه الحجة التي تقوم على أن عقول المجتهدين من اتباع النص في فترة تاريخية قد اتفقوا على "تأويل معين" ولهذا فقد بلغ هذا التأويل - بحكم الاتفاق عليه - رتبة تلامس المطلق وتتميز بالثبات.. ولهذا فما أجمع عليه السلف »على صعيد الفهم والمعنى هو وحده الصحيح«⁽³⁾.. غير أن الخطير هو أن "الإجماع" نفسه ليس عليه اجماع، فالإمام مالك يرى أن الإجماع هو إجماع "أهل المدينة فقط" وهو يقصد زمن الصحابة والتابعين لأنهم ورثوا عمل النبي فصار فهم تقليدا،

- نصر حامد، الخطاب والتأويل، المركز الثقافي العربي، البيضاء وبيروت، ط1، 1، 2000، 181.

²- مرجع سابق، عبد الجواد ياسين : 8.
- محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي : دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، المركز الثقافي العربي، ط1، البيضاء 1986، 121.

فإجماعهم على حكم معناه السير وفق الشريعة الإسلامية التي اعتادوا العمل بها، وهناك من يقصر الإجماع على إجماع "الصحابة وحدهم" دون غيرهم بدون تقييده بالمدينة، وهناك من استبعد حصول الإجماع حتى في عصر الصحابة ؛ إذا كان المقصود هو اجتماعهم وتداولهم في مسألة معينة والانتفاء إلى رأي واحد تتم الموافقة عليه بالإجماع.. وقد رد الغزالي على الإمام مالك في قوله أن الإجماع هو إجماع أهل المدينة فقط، كما رد على من قال بأن الإجماع هو إجماع الصحابة فقط، فدافع الغزالي عن الإجماع بمعناه الشامل أي "اتفاق أمة محمد ص خاصة، على أمر من الأمور الدينية"⁽¹⁾.. ويلخص أحد المعاصرين بعضاً من الاختلافات حول إمكان الإجماع وحجيته قائلاً: "جمهور الأصوليين على أن الإجماع على نحو ما ذهبوا إليه ممكن الوقوع، وخالفهم النظام والشيعة... وإذا فرض وقوع الإجماع فمعرفته ممكنة عند الجمهور، خلافاً لبعض العلماء ومنهم أحمد بن حنبل فقد روى في إحدى الروايتين عنه أنه قال: "من ادعى الإجماع فهو كاذب، لعل الناس يختلفوا، ولكن يقول: لا نعلم أن الناس يختلفوا، أولم يبلغنا.. وقال ابن القيم: إن علم الإنسان (باتفاق الناس) في شرق الأرض وغربها أن لم يكن متعذراً فهو أصعب شيء واشقه.. وجمهور العلماء على أن الإجماع حجة شرعية ويجب العمل به خلافاً للشيعة والخوارج والنظام من المعتزلة.. وقد ذهب ابن حزم إلى تفسير الإجماع، بالاتفاق على نقل شيء عن الرسول (ص) لأن المشرع هو الله وحده والرسول مبلغ مبین، والعلماء ينقلون بيانه إلى الناس في الأجيال المتعاقبة، فاتفقهم على نقل شيء عنه (ص) حجة في ثبوته ووجوب العمل.. وللشافعي رضي الله عنه - مع قوله بحجية الإجماع واستدلالة له - يقول: "لست أقول - ولا أحد من أهل العلم - : هذا مجمع عليه - إلا لما لا تلقى عالماً أبداً الإقالة لك، وحكاه عن قبله : كالظهر أربع ركعات وكتحريم الخمر وما أشبه" يعني أن الإجماع لا يكون إلا في الأمور المعلومة من الدين بالضرورة"⁽²⁾، وعلى من استدلل على حجية الإجماع بقوله تعالى: "ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله

1 - الغزالي المستصفى من علم الأصول، ج1، 189.

2 - علي حسب الله، أصول التشريع الإسلامي، دار المعارف، مصر، ط5، 1976، ص: 111 - 112 - 116.

جهنم وساءت مصيرا" النساء 115، رد الإمام الغزالي بقوله : >> الآية ليست نصا في القرض أي الإجماع، بل الظاهر أن المراد بها، أن من يقاتل الرسول ويشاقه ويتبع غير سبيل المؤمنين في مشايعته ونصرته ودفع العداء عنه نوله ما تولى >>⁽¹⁾ غير أن ما يهمننا في يصبح معصوما من الخطا بعد الإجماع >>⁽²⁾. هذا المصدر التشريعي - الإجماع - الذي تجاوز >> في النموذج الأصولي التقليدي حدود الوسيلة أو الأداة إلى الدليل المعياري القطعي الذي فشا في لسان الفقهاء تكفير من يخرقه، مع أنه... عبارة عن التجربة التاريخية للجماعة التي يتواصل فيها الديني والسياسي، وقد اعتبر قطعيا مع أنه نتاج مقدمات ظنية أي أحكام نتجت بالقياس، واكتسب منزلة مقدسة، مع أنه مجرد فعالية اجتهادية تدعي في مفهومها عن نفسها اجماع المجتهدين حول مسائلها في عصر العصور، وإذا كان انعقاد الإجماع - على فرض إمكانية انعقاده تجاوزا - لم يتحقق إلا في القرون الثلاثة الهجرية الأولى، فإن هذا يعني تحوله إلى سلطة معرفية تؤدي وظيفة سياسية بمفردات شرعية بغض النظر عن مدى انعقاده فعليا >>⁽³⁾.

يلاحظ أن الكثير من الخلافات بين أهل السنة والجماعة، وبين الشيعة / الأمامية، سببها التاريخ والحدث التاريخي، وعمق الخلاف هو تأويل الأحداث، الذي يتأسس على تأويل معرفي، ويتجلى هذا الخلاف بوضوح في مبحث "الإمامة"، حتى أن أبا حامد الغزالي في صياغته لعقيدة من أسماهم عصبة الحق أي أهل السنة، أدرج >> موضوع الإمامة وخلافة الخلفاء الأربعة والرأي في الصحابة، ضمن معتقد أهل السنة إلى جانب الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر >>⁽⁴⁾..

فترى أن الأمامية ضيقوا من مفهوم الصحبة حين استبعدوا الخلفاء الثلاثة فضلا عن جمهور غفير من الصحابة، كطلحة والزبير ثم سعد بن أبي وقاص وعبد

- الغزالي المستصفى، المطبعة الأميرية، بولاق، 1322 هـ. ج 1، ص : 167 (بذيله 1 فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت).

- محمد جمال باروت أحمد الريسوني، الاجتهاد : النص، الواقع والمصلحة، دار الفكر سوريا، ط1، 2000، 124.

³ - نفسه : 135.

- دراسة نقدية لبعض المشكلات الكلامية من منظور لغوي منطقي، ص : 44 - 45. ⁴

الله بن عمر وأسامة بن زيد وغيرهم ممن اعتزل الحرب بين علي وخصومه، ناهيك عن معاوية وعمر بن العاص وغيرهما ممن شهد صفين في صف معاوية. فرد عليهم السنة بتوسيع المفهوم، بأن أدخلوا في مفهوم الصحابي كل من عناصر النبي ص، ويبقى المشكل مطروحا مادام لم يحسم الموقف من نص الوصية..

وستبقى المواقف متضاربة : صرف الخلافة عن علي عقب وفاة النبي كبيرة أو فسق ؟ وبيعة أبي بكر كفر لأنه خروج عن وصية علي، ومن طعن في الصحابة فقد طعن في النبي (ص)...

والتأمل المتعمق في جوهر الخلاف يجد أنه راجع إلى تأويل الكفر وتأويل الصحبة بل وتأويل أصول الدين ما الذي تتضمنه وما لا تتضمنه..

هذا على مستوى الخلاف بين أكبر طائفتين مسلمتين، ومثله داخل كل طائفة، فقد اعترض على المذهب المعتزلي المؤسس لمقولة المجاز لحل إشكالية التعارض بين ظاهر النص والعقل وبالتالي التأسيس للتعددية التأويلية المستوعبة لحرية التأويل والمتسعة للإجابة عن الأسئلة الواقعية الغير متناهية، وكان أشد معارضي المعتزلة هم >> الفقهاء ورجال الحديث، الذين يعتمدون غالبا على "النقل" منهجا في استنباط المعرفة⁽¹⁾، هذا النقل الذي هو مجموعة من النصوص البشرية النسبية التاريخية التي أدى الارتهاق إليها إلى السقوط في الارتهاق للتاريخ، فكلام الله وحده المنزل والمحفوظ، أي أنه مفارق للتاريخ البشري، وبالتالي فإنه يحمل إطلاقية خاصة في مضامينه يستطيع العقل بالتأويل وصيرورة الحقيقة أن يكتشف مكنوناته حسب السقوف المعرفية لكل عصر... و>> من الثابت أيضا أن ليس ثمة من أداة مؤسسة يمكنها أن تدعي مشاركتها الإيمان ميزة المطلق فهي ليست إلا وسيلة في خدمة الإيمان، إن ما يسبب موت الديانات هو أن تشاء خلودها عبر دوام أحد أشكالها التاريخية، ولو كان هذا الشكل هو الأول في تاريخها وقد رسمه الأوائل عفويا في فجر اختبارهم الإيماني⁽²⁾، لكن الفهم الأصولي يتعلق بالنماذج الدينية المؤسسة حتى >> صارائمه المذاهب - وهم نماذج تاريخية -

- نصر حامد أبو زيد، الخطاب والتأويل : 182. 1

- بولس الخوري، في فلسفة الدين، 72 - 73. 2

في الوجدان الإسلامي معصومين، أو في حكم المعصومين، لا يتجرأ أحد على القدح في آرائهم أو التنبيه إلى ما فيها من رواسب ظروفهم الخاصة وما اصططغت به بالضرورة من تاريخية^{<(1)>}.

إن التفسير التبريري للدين يعمل على محاصرة النص بتجربة تاريخية منقضية، اعتقاداً منه أن حركة التاريخ تسير دوماً نحو الأسوأ، فمحاصرة الدين بالتاريخ تتم من خلال >> إهدار البعد التاريخي وإضفاء القداسة على الممارسات التأويلية المتجذرة في الأرضية المجتمعية، والمستندة إلى خلفيات معرفية ومنهجية ظرفية، وعندئذ يبدو الإسلام وكل الأديان نمطاً متجانساً له معنى أحادي ثابت لا يتأثر بحركة التاريخ واختلاف المجتمعات^{<(2)>}.

والتفسير التبريري لأنه منشء دوماً إلى الماضي، فإنه متوجس من الجديد التاريخي فقد >> اكتشفت المطبعة الحديثة في القرن الخامس عشر وانتشرت في أوروبا وبعض أجزاء أخرى في العالم بسرعة، فالسلطان العثماني أصدر بمنع إدخال المطبعة إلى البلاد الواقعة ضمن الإمبراطورية العثمانية، بناءً على توصية من مفتي السلطنة بحجة الخوف من سقوط قصاصات من الورق المطبوع فيها عبارات أو أسماء مقدسة على الأرض، وقد أخرجت هذه الفتوى استعمال الطباعة الحديثة ونشر الثقافة في البلاد الإسلامية ومنها الدول العربية قروناً؛ إذ لم تدخل الطباعة الحديثة وتنتشر فعلاً في هذه البلاد إلا في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين^{<(3)>}، أن هذه الفتوى قد تم تجاوزها الآن غير أن ما يهمننا فيها هو الرؤية الابستمولوجية المتحكمة فيها أو ما يسميه البعض اليوم "فلسفة الفقه" وهي فلسفة تستبطن موقفاً أصولياً من الممارسة التأويلية ومجالاتها وحدودها..

- الشرفي، الإسلام بين التاريخ، الإسلام بين الرسالة والتاريخ، دار الطليعة، بيروت،¹ ط. 2001، 1، 153.

- السيد ولد أباه، التأويل والتنوير : دراسة في مشروع نصر حامد أبو زيد، إضافات² الجمعية العربية لعلم الاجتماع، القاهرة، عدد 2 يناير 1999، ص : 24.

- غيبة حيدر، هكذا تكلم العقل : المفهوم العقلاني للدين، دار الطليعة، بيروت، ط2،³ 2003، ص : 51.

إن النص الديني بحكم إطلاقيته، يدعو الإنسان إلى ممارسة الوعي بذاته ولحظته التاريخية، ولهذا فالتأويل من ضرورات المحافظة على عنفوان وتالق النص في التاريخ، فالنص في جوهره يرفض التسلط والإكراه والأحادية، لكن التفسير التبريري ينبي في جوهره على الثبات والاستقرار ويعمل على تكريس وعي أحادي تاريخي، لهذا فهو يمارس سلطة احتكار المعنى والدلالة النصية، مما يجعل الإنسان يرى فيه نوعاً من الذكرى التاريخية أكثر من دلالات نصية حية معاصرة لهُمومهِ وقضاياهِ الوجودية... والحقيقة أنه من خلال استقراء تاريخ الأفكار الدينية، نجد أن كل الاجتهادات والتأويلات مهما قدمت للنص المقدس من الحيوية والواقعية، ومهما ظهر أنها تخدمه في فترة من الزمن، إلا أنها تنزع عنه إطلاقيته وصلاحيته لكل التواريخ والأزمان، ويبدو أن الإنسان لشدة غيْرته على النص سقط في نوع من الاشتراك التنزيلي، عندما سمح لنفسه أن يرص بجانب النص الإلهي نصوصاً تاريخية أخرى، اعتقاداً منه أنه يحل مشكلة التأويلات الحرة اللامتناهية باعتبارها باباً لدخول التلاعبات بمعاني النص، فكان حسم المشكل بمحاولة توحيد التأويل، مما أدى إلى تأسيس وحي جديد، ونص مواز للنص المقدس، فكانت النتيجة أن تم التشريع للفوضى التأويلية التي انطلقت مع الفتنة ولا زالت تفقد العقل المسلم اليوم الكثير من توجهاته المعرفية والمنهجية القرآنية المعاصرة...

المبحث الثاني : أنموذجان للتفسير التبريري للدين

اخترت للتمثيل على التفسير التبريري للدين، أنموذجين دينيين مشهورين في كل المجتمعات، وهما تيار التصوف وتيار التسييس، وذلك لعدة اعتبارات ؛ فقد لاحظت أن الإنسان كلما تعامل مع النص بمنهج التفسير التبريري، إلا وأنتج معرفة إيديولوجية طائفية، لا تستجيب لأشواق الإنسان كإنسان، نعم فقد تكون ملبية لتطلعاته الوجدانية كما يقع في التربية الصوفية، ويمكن أن تقدم للفرد أحلاماً بالدولة الدينية الملائكية كما هو الشأن عند الاتجاه التسييسي، غير أن مدارس التصوف أثبتت فشلاً ذريعاً في المساهمة في تبني قضايا الإنسان الدنيوية... كما أن تجارب التسييس الديني قد قدمت أسوأ نماذج الحكم والسياسة بعد نجاحها في تسلم إدارة الحكم، إن سؤال الإنسان يبقى ملحاً، وقد أثبت التاريخ أن جميع التأويلات الطوباوية الحاملة، لم تستطع أن تمسك بالمفهوم الحقيقي لهذا

الإنسان، وهذا سر الانحسار الذي تعرفه الاتجاهات الباطنية، وسوف أحاول في هذا المبحث أن أقارب التفسير التبريري عند كلا التيارين..

يتشابه الاتجاهان في نظرتيهما للحياة والمجتمع والخارج : فهذه مجالات للشر والذيلة والخطيئة، غير أن التأويل الصوفي ينكفى ليغير الداخل ؛ بينما التأويل السياسي يتوجه على أن هناك "معطى مطلقا في التاريخ" غير النص الإلهي، وهو إما بشر / إنسان / ولي، أو مرحلة زمنية / تجربة تاريخ، المهم أن هناك "أصلا" يمارس سلطة بواسطة مرويائه أو أجماعه، تتطابق اجتهاداته البشرية مع القوانين الطبيعية في ثباتها وديمومتها، فالتأويل الصوفي يعتقد في خصوصية الولي، عمود النور الذي يعرف الحقيقة من وراء الشريعة، والباطن من وراء الظاهر... والتأويل السياسي يعتقد بفرادة تجربة تاريخية سابقة، وقد يرفع أصحابها إلى مرتبة العصمة والعدالة المطلقة، وتؤول أخطاؤهم - في تناقض بين - على أنها اجتهادات مأجورة... وهكذا يعبر هذان الأنموذجين : عن التأويل للنص وشل عالميته... يكفي أن أولياء الصوفية يدعون الانتساب إلى الشرفاء من ذرية علي وفاطمة أي آل البيت وهذا ما يطرح إشكالا حول انفتاح وإنسانية "التجربة الصوفية" فالتأويلات الصوفية تكتسب مشروعيتها من "النسب الشريف" وكذلك التأويلات السياسية تكتسب الشرعية وتنزعها على أساس "القرشية"، وكلاهما ضرب لأحد أركان الدين الذي هو "التساوي في الإنسانية" والتفاضل بالعمل الصالح..

وسوف أخصص في هذا المبحث الحديث عن تيارين كبيرين يمثلان التفسير التبريري في أبرز صوره واجتهاداته ورؤاه، وهما تيار التصوف وتيار التسييس...

المطلب الأول : تيارات التصوف الديني

الحقيقة أن التوجه الصوفي المنصرف إلى أولوية التربية القلبية والوجدانية على غيرها، ملازم للتجربة الدينية في حد ذاتها، أنه توجه ممكن في الإنسان ملازم لإنسانيته بالفطرة.... ويطلق على التصوف في شقه المعرفي... الاتجاه العرفاني وهو الغنوص في اللغات الأجنبية *gnose*، وما يميز العرفان >>> أنه من جهة معرفة بالأمور الدينية تخصيصا وأنه من جهة أخرى معرفة يعتبرها أصحابها أسمى من معرفة

المؤمنين البسطاء وأرقى من معرفة علماء الدين الذين يعتمدون النظر العقلي (اللاهوتيون المتكلمون)^{<<1>>}.. وقد كان ينظر في أوروبا إلى الحركة التصوفية على أنها منبثقة من المسيحية وحدها، غير أن مؤرخي الأديان توصلوا اليوم إلى أن >>العرفانية ظاهرة عامة عرفتها الأديان السماوية الثلاثة، اليهودية والمسيحية والإسلام، كما عرفتها الديانات الوثنية^{<<2>>}، ويمكن أن يطلق على جميع التيارات الدينية التي تتبنى الغنوصية اسم "العرفانية"، والتي تعتبر أن المعرفة الحقيقية بالله وبأمور الدين هي تلك التي تقوم على تعميق الحياة الروحية واعتماد الحكمة في السلوك مما يمنح القدرة على استعمال القوى التي هي من ميدان الإرادة... وقد كان العرفان هو النظام المعرفي الذي ساد العصر الهيلينستي بمراحله الثلاث التي تمتد من أواخر القرن الرابع قبل الميلاد مع نهاية العصر اليوناني الخالص، إلى منتصف القرن السابع بعد الميلاد، مع ظهور الإسلام وانتشار الفتوحات، ذلك أن هذا العصر شهد ردة واسعة ضد العقلانية اليونانية فانتشر "العقل المستقبل" وأصبح طلب العرفان هاجس العصر كله^{<<3>>}.

لهذا فأنا لا أقصد التصوف كنزعة تنظر إلى الدين على أنه أخلاق وليس فقط أحكاما وطقوسا ورسوما، >>التصوف بمعنى العبادة الباطنة أي مراعاة الجانب الروحي في العبادة مراعاة تامة. إنه نقد للسلوك الذي يمارس باسم فرائض الدين وسننه مهتما بالمظاهر^{<<4>>}.. إذ نجد أن >>مبدأ التسامح يجد تعبيره الأرقى في الفكر الصوفي؛ لأنه يؤسس التسامح تأسيسا معرفيا لا أخلاقيا وذلك انطلاقا من حقيقة أنه >>لا يعرف الحق إلا الحق^{<<5>>} وإنما أقصد بالاتجاه التصوفي ما >>صار إليه التصوف عندما جعل هدفه الكشف والعرفان كما كان قبل الإسلام^{<<6>>}.. وليس مقصودا لدي التجارب الأخلاقية التي يمارسها السالك بدون الدخول في "تنظيم" أو نظام قيم وواجبات مخصوصة تميز الإنسان، لأن التصوف الأخلاقي مدخل من

¹- الجابري، بنية العقل العربي، المركز الثقافي العربي، ط1، 1986، ص : 241.

²- نفسه : 241.

³- نفسه : 241.

⁴- الجابري : العقل الأخلاقي العربي، المركز الثقافي العربي، البيضاء، ط1، 2001، ص : 624.

⁵- نصر حامد أبو زيد، الخطاب والتأويل، المركز الثقافي العربي، البيضاء وبيروت، ط1، ص : 255.

⁶- العقل الأخلاقي العربي : 624.

المدخل إلى عالمية الدين لقيامه على تأويل إنساني مفتوح مؤسس على مفهوم التجربة الذاتية وهي ملك لكل إنسان، ثم أنه يعطي للطقوس الدينية أبعادا سلوكية إنسانية من التعاون والتعارف والحب والتسامح، غير أن التصوف عندما يخرج عن إطار التجربة الفردية التأملية التي يخوضها الإنسان مع النص الديني لاكتشاف دلالاته وأعماقه، ويصبح تعبيراً عن طائفة ووظيفة ومقولات ولباس مخصوص و "هوية" منقحة بعناية ومصاغة بأحكام، فإن التجربة الدينية المفتوحة للناس جميعاً تصبح ناقصة ومعيبة بدون الدخول في هذه "الهوية" والانتظام والانضمام والانضباط لشكل مبتكر وزائد على النص يصبح معه التعبد خضوعاً لتأويل مخصوص للنص وليس محاولات متجددة ولا متناهية من "التدبر" و "التفكير" ..

إن التنظيم والهيكلية تقتل النص الديني وتحد من انفتاحه، وكل تأويل يدعي المحافظة على التدين بالتقنين والتنظيم، فإنما يخلق "منافقين" وليس "مؤمنين" .. فإحدى أقسى الضربات التي أصابت الأديان هي تحولها إلى دولة وتنظيم ورجال دين وكهنة ورهبان ومجامع، ومذاهب وأحزاب وجماعات، وتراث مغلق من الشروح والحواشي.. لقد خنقت النصوص واختنق الإنسان معها...

يميز المتصوفة بين معرفة تكتسب بالحس أو بالعقل أو بهما معاً، وبين معرفة تحصل بالكشف والعيان، فأهل التصوف هم أهل العرفان المعتمدون على الكشف في تأويلاتهم الدينية، حيث ينتج التأويل بواسطة آلية ذهنية تتجه «من الباطن إلى الظاهر أي من المعنى من اللفظ»⁽¹⁾ ... ولهذا فالكثير من المصطلحات حملها التصوف - بعد إخراجها من سياقاتها الإنسانية - معان أبعد عن روح ومقاصد الأديان مثل مصطلح : الورع والزهد والعزلة... والتي كانت تعبر عن الكثير من التصورات الأخلاقية الفارسية قبل الإسلام⁽²⁾.

ثم إن من إشكاليات التيار الصوفي، هي تعامله مع التأويل بذاتية مفرطة تقتل المعنى، فمن خلال التفسير الإشاري يصبح المعنى متوقفاً على الحالة النفسية للمتصوف، أي يصبح النص بلا معنى... تماماً كما هو موقف القبالة اليهودية «التي

¹ - الجابري، بنية العقل العربي : 279.

² - العقل الأخلاقي العربي : 624.

تجعل النص قابلاً لأن يمنح عدة تأويلات غير منتهية لتحطيم مستواه التعبيري الخطي بتشتيت أصوات الكلمة وحروفها وإسناد دلالات للحروف والأصوات⁽¹⁾.

ويقوم التأويل الصوفي دوماً، على نوع من التضمين؛ فهناك آراء جاهزة يراد صرف معنى النص إليها، وجعله ينطق بها "وسبب التضمين هو" تحريره من قيد القرينة.. فالجواز من اللفظ إلى المعنى، أو من الظاهر إلى الباطن في التأويل العرفاني، يتم بدون خسر، وبدون واسطة⁽²⁾.

ثم إن فكرة الشيخ الذي يملك حق التأويل وإعطاء الورد وسلطة قيادة الاتباع، فهو المؤول مالك الحقيقة الذي يتلقى الإلهام عن الله بطريق العلم اللدني، هذه الفكرة في حد ذاتها فكرة اقصائية تستبطن الاصطفاء والعنصرية في النظر إلى الناس...

ونجد في التراث الديني الإسلامي نماذج عديدة لتأويلات المذاهب الباطنية والإيديولوجيات الغنوصية، مثل التأويل الباطني الشيعي للآيات التالية: [فبأي آلاء ربكما تكذبان مرج البحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان. يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان]⁽³⁾، يقولون أن البحرين اللذين يلتقيان هما علي بن أبي طالب وزوجته فاطمة الزهراء ابنة النبي صلى الله عليه وسلم، ويؤولون اللؤلؤ والمرجان، بأنهما الحسن والحسين (ص) اللذان لهما منزلة عالية عند الشيعة... كما يؤولون "المتولي" في قوله تعالى: [وإذا تولى سعى في الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد]⁽⁴⁾ بأنه معاوية بن أبي سفيان الذي خاصم الإمام علي الذي تشيع له الباطنيون..⁽⁵⁾

وقد وقع نفس الشيء في التجربة المسيحية عندما طوق النص الإنجيلي بالكثير من التأويلات الدينية التي صاغت الكنيسة والشروح المدرسية والمجامع

¹ - عمر بيشو، التأويل مقارنة أصولية، فكر ونقد، ع 30، يونيو 2000، سنة 3، ص: 129.

² - بنية العقل العربي : 279.

³ - سورة الرحمان، آيات 18 - 22.

⁴ - سورة البقرة : 205.

⁵ - نصر حامد أبو زيد، مفهوم النص : دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي، البيضاء، وبيروت، ط 5، 2000، 234.

المسكونية، فأصبح المؤمن أمام تأويلات صحيحة وأخرى تأويلات مبرقة، وكانت النتيجة أن ثار الإنسان على النص نفسه وليس على تأويلاته..

إن التصوف قد انحرف عن المقاصد الإنسانية للدين عندما كرس نمطين من السلطة والتسلط من البشر على البشر: 1 - سلطة الشيخ على المريد 2 - سلطة القطب /الولي/ الغوث على الناس... فسلطة الشيخ على المريد مورست بها أقصى أنواع الاستبداد الروحي والمادي على الاتباع والسالكين إلى الله »ومن خلال هذا النوع من الاستبداد كرسوا جبرية عمياء واجتهدوا في صرف أتباعهم عن التفكير في أي شيء آخر غير "ماهم فيه" من "مجاهدة النفس"... هكذا جعلوا من ترك تدبير شؤون الدنيا عقيدة وسموا ذلك توكلًا... أما سلطة الولي على الناس فلأنه ارتقى إلى درجة الولاية، فقد تحرر من رق عبودية التكليف »ويتحلل من أغلال الأخلاق التي سموها مقامات، مدعيا التجوهر أي الارتفاع عن أفق البشرية، والالتحاق بعالم الربوبية»⁽¹⁾.

المطلب الثاني: تيارات التسييس الديني

لقد لعب الواقع السياسي الديني بعد وفاة النبي (ص)، أدوارا كبيرة في بناء النظريات السياسية للحكم والسلطة في الإسلام، خصوصا مع الصراع السني / الشيعي، هذا الواقع »أضاف إلى النص القرآني الخالص أبعادا تأويلية لم تكن له وقت التنزيل.. لقد راحت كل فرقة من فرق الصراع الناجم عن الفتنة (لاسيما الشيعة ثم أهل السنة) تؤول آيات الكتاب تأويلا موافقا لنظريتها السياسية في السلطة، متجاهلة بذلك لحقيقة "السكوت القرآني" الحاسم فيما يتعلق بهذه القضية : فزعمت الشيعة أن هناك نصوصا تثبت الوصية لعلي وأبنائه من بعده. أما أهل السنة فممنهم من ذهب إلى أن القرآن يؤيد خلافة أبي بكر ومنهم من اكتفى بالقول بأن القرآن يثبت النظرية السنية في الخلافة»⁽²⁾.

وكان أجلى موقف لتيارات التسييس الديني : قد تجلى في صراع الفرق الإسلامية »إذ كان كل طرف يستدل على صحة موقفه وفساد موقف الخصم بآيات

¹ - العقل الأخلاقي العربي : 626.

² - عبد الجواد ياسين، السلطة في الإسلام : العقل الفقهي السلفي بين النص والتاريخ، المركز الثقافي العربي، البيضاء، وبيروت، ط1، 1998، ص : 201.

من القرآن، ولهذا، لما أرسل علي بن أبي طالب بن العباس لمفاوضة الخوارج، نصحه قائلا : >> ... ولا تحاجهم بالقرآن فإنه ذو وجوه ولكن خاطبهم بالسنة <<(1).

إن التفسير التبريري السياسي يتصور أن النص يحمل حقيقة قد قيلت يوما ما ولابد من أخذها وتوراتها، ولأنها واحدة ؛ فإن الخطابات الأخرى تغدو باطلة.

فالتأويل التسييسي يصنع خطايا دينيا طائفيا مغلقا، يشترط للانتماء إليه ؛ الاعتقاد في قائمة من الشروط والتعليمات التي تستند على النص لكنها تأويلات واجتهادات لا تدخل في دائرة الإلزام كالعقيدة والعبادات، وإنما هي مجرد نصوص اجتهادية بجانب النص المقدس أو تأويلات تعسفية زائغة لمنطوقه، ولهذا فهي بالضرورة مغلقة وملزمة لأتباعها دون باقي البشر، لكن لأنها تعتقد في امتلاكها الحقيقة المطلقة، فإنها خطابات دوغماتية تمارس النضالية والمواجهة مع الآخرين....

إن الدين عندما يقلص إلى منظور سياسي، يقدم لأتباعه نوعا من الإحساس بالوصاية على الناس، مما يضيع حرية أتباع الديانات الأخرى، ويلغى حرية التدين الاختياري المفتوح، وتصبح العلاقة ليس الحرية أو الاقتناع الفردي، بل الجماعة ومصالحها ودورها تجاه ذاتها ووجودها ومستقبلها، وبالتالي تجاه العالم. وهو طبيعي أن القتال الدفاعي عن النفس والذي من الأفضل أن يسمى مقاومة لأنه يحمل نفحة دفاعية، فهذا مكفول بالعقل والنص والفطرة – اعتقادا منه أن النص الديني ينبغي أن يسود العالم بالقوة، فتراه يتبنى التأويل العسكري لما يراه حقا عن طريق "عسكرة الحق" نفسه. لكن هل هناك حقيقة تفرض بالقوة ؟، >> فلا رأي كائنا ما كان يستحق أن نحمل عليه الغير بالقوة ولو كان رأي الجماعة الصالحة، فما بالك برأي الجانب الواحد الذي لا يمكن أن نمتحن صلاحه، مادام لا يحاور غيره ولا يحاوره غيره <<(2).

وتبين التجربة اليهودية كذلك خطورة التأويل التسييسي للنص الديني ؛ فالوحي في الدين اليهودي أو الوحي وفق نظام الكنس، يقوم على مركزية عرقية تتمحور تمحورا إبراهيميا (ت 1874) ليس إله كل البشر، بل الإله القومي

¹ - بنية : 263.

² - طه، عبد الرحمان، الحق العربي في الاختلاف الفلسفي، المركز الثقافي العربي، البيضاء وببيروت، ط.1، 2002، ص : 46.

لأسرة عرقية سامية⁽¹⁾ أسطوري يوجه المستقبل نحو كل ما يمكنه أن يكون بمثابة انتحار كوني⁽²⁾.

لقد خلطت التأويلات الصهيونية المسيحية، بين الدين اليهودي ونصه التوراتي وبين الإيديولوجية الصهيونية العنصرية، مما جعل العالم لأول مرة في التاريخ يندد بحفنة أفكار يظن أصحابها بأنها تطابق ما جاء في كتاب مقدس.

وتحد الصهيونية معارضة من علماء يهود صوته مسموع بسبب الدعاية والإرهاب الصهيونيين، فالصهيونية بتأويلها التسييسي للنص اليهودي، لا تحب أن تسمع قولة الحاخام "هيرش" >> أنها بدعة... أن تسعى الصهيونية لإعطاء الشعب اليهودي هويته ككيان قومي⁽³⁾.

إن التأويلات السياسية للدين والتي هي فرع من التأويلات والقراءات التبريرية في اليهودية والمسيحية والإسلام تثبت أنها عاجزة عن تقديم فكر ديني منفتح على الأشواق الإنسانية بعيدا عن الطائفية والانغلاق... مساهمة الدين في الإجابة عن الأسئلة الإنسانية الكبرى.. أي تلك النقطة الجوهرية الجامعة المطابقة لأشواق الفطرة الإنسانية، والتي رانت عليها فهوم البشر وتأويلات الأجيال، فاختلفت رغم قوة نصاعتها.. وهذا ما جعلني أقرر المضي في بحث هذه الإشكالية التي يكون أطرافها الدين والإنسان والتأويل.

إن الإشكال الأول الذي يطرح، متعلق بجوهر المصطلحات المستخدمة، فعندما نقول "الدين" فنحن أمام أحد أمرين : النصوص الصامته التي هي "نصوص الوحي" ؛ أو فهوم وتفسيرات وتأويلات الأتباع لتلك النصوص... وإذا استحضرن أن تعقل الإنسان للمعاني من النصوص، هو عملية معقدة يقوم بها العقل للوصول إلى المضامين النصية حيث تدخل الكثير من القبلية والإسقاطات والتراكمات والرؤى لتوجه عملية التفسير النصي، وهذا سر الرواية المشهورة >> من فسر القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ... بيد أنه لا بد من حصول الفهم عن طريق العقل، أو ليس

¹ - وليم الشريف، المسيحية والإسلام والنقد العلماني، دار الطليعة بيروت، ط 2000، 1، ص : 108.

² - روجي غارودي، الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية، منشورات الزمن، المغرب، أكتوبر 1996، ص : 42.

³ - نفسه، ص : 13.

المطلوب هو أن نفسر القرآن لنفهمه ثم نطبقه ؟ وما هي هذه العملية إلا إبداء رأي / اجتهاد عقلي من طرف القارئ / المفسر حول النص، ومادامت العقول متعددة فإن التفاسير سوف تتعدد بالضرورة، مما يجعل الإمساك بجوهر الدين أمرا مستعصيا، غير أنه يمكن الاتفاق على الأمور الذاتية في الأديان والتي تشكل جوهرها، فيكون هذا الجوهر هو الخلفية الاستمولوجية والمعرفية الحاكمة على مدى احترام التأويلات المختلفة للمطالب الدينية ...

إن أهمية البحث في علم الأديان وعلاقته بالنصوص الدينية تنبع من الدور الكبير الذي تلعبه الأديان على مستوى العلاقات الإنسانية، وإذا نظرنا إلى هذا الدور بنظرة تاريخية نجد أنفسنا أمام مساحة شديدة التنوع من أنماط العلاقات التي تتجلى تارة في قمة التسامح والسمو الأخلاقي الذي تدعو إليه الأديان أتباعها، وتارة، تأخذ هذه العلاقات أشكالا من العداوات والتحريض والحروب، وهذا يبرز الدور المهم والخطير للخطابات والرموز الدينية، وتأثيرها على الفضاءات العقلية والممارسات السلوكية للمجتمعات الإنسانية.

إن العلاقة التي تربط الإنسان بالنصوص الدينية - بحكم انبثاقها على التسليم والإيمان والأتباع - تفضي إلى تماهي الفرد بشكل كلي ومخلص مع المعاني والمضامين الدينية، مما يجعل الأثر الديني في الإنسان من أقوى الآثار وأبلغها في تشكيل الفرد لرؤاه وبناء شبكة علاقاته، وكذلك تأسيس المجتمع لعلاقاته مع غيره من المجتمعات، سواء على مستوى التفهم وتشكيل المعرفة أم على مستوى تأسيس استراتيجيات ممارسة القوة ؛ غير أن هذا التنوع الشديد من التفسيرات الذي تبنيه المجتمعات من نفس النصوص الدينية عبر تطورها الزمني تطرح تساؤلات تحتاج للمدرسة والبحث.

والحقيقة أن هذا التنوع الشديد في القراءات والتأويلات الدينية بين المسلمين أنفسهم سواء حصرنا النظر داخل المذاهب السنية وحدها، أم وسعنا النظر إلى الدائرة الشيعية باختلاف أطيافها، أو نظرنا نظرة عالمية إلى المذاهب الدينية عالميا مسيحية ويهودية، يدفعنا إلى التساؤل عن التصنيف المناسب الذي نستطيع به فهم هذا التنوع الكبير من مذاهب التشدد والعقلانية والطائفية... ويجعلنا نتساءل كذلك عن مصدر هذا التنوع هل هو النص وتعدد دلالاته ؟ أم هو العقل وتنوع أسئلته ؟ أم هو الواقع وسلطته ؟

ثم لابد من مساءلة هذا المسمى "تفسيراً" عن تطوره واختلاف مدارسه مع الزمن ؟ ومدى إمكانية الحديث عن تفسير صحيح وتفسير خاطئ ؟ وحتى مع قبولنا النظري لهذا التصنيف ؛ فمن هي الجهة المخولة للحكم على التفسير أو التأويل و إصدار حكم الخطأ عليه ؟ إن الإشكال الإبستمولوجي المطروح – إذا استحضرنا كوننا بشراً وأن عقولنا تقدم مجرد أفكار نسبية وليست مطلقة – هو "عقل من" من بيننا ؟ الذي نحكمه مطمئنين في مدى مطابقة تأويلاتنا للمعنى الإلهي المتضمن في النص ؟ هل يمكن أن نتحدث عن الإجماع كضامن للحقيقة ؟ لكن إجماع من ؟ هل إجماع الطائفة الدينية الفلانية مهما كانت تعتقد في صحة نصوصها ؟.. لقد سجل التاريخ جرائم بشعة ارتكبتها "أناس" بناء على "تأويلهم" لنصوص "الله" ومات في هذه المجازر "عباد الله أبرياء".. إن تراجع العالم عن فتواه – ويقال الشيء نفسه عن الجماعة – واعتذار مؤسسة الفاتيكان عن محاكمات التفتيش في أوروبا في القرون الوسطى لن يحل المشكلة، لأن الذي أمر بارتكاب الكوارث هو العقل البشري والذي اعتذر عنها هو ذات العقل مهما حاول أن يقدم "التبريرات" مدعومة من النصوص الدينية، لهذا يبقى التساؤل الرئيسي كيف نفك التماهي الذي يصطنعه أتباع الأديان بين عقولهم وبين نصوصهم الدينية ؟ كيف نجعل العقل يعي تعقله للنصوص ؟ كيف نزيل من العقل أنايته الطائفية بأن يدرك أن الطائفية في عمقها نفي للعقل واغتيال للإنسان ؟ وأن مقتضى "التوحيد" هو إسقاط الألوهية عن أي عقل وأي جماعة متى وأينما وجدت...

المصادر والمراجع

1. القرآن الكريم.
2. ياسين، عبد الجواد، السلطة في الإسلام : العقل الفقهي السلفي بين النص والتاريخ، المركز الثقافي العربي، البيضاء وبيروت، ط1، 1998، ص : 36 – 37.
3. ابن حزم، الأحكام في أصول الأحكام، الجزء 1، مكتبة عاطف، القاهرة، ط1، 1978.
4. ابن خلدون، المقدمة، دار ومكتبة الهلال، بيروت، 1986، الفصل 7 من الكتاب 1.
5. عبد الجواد ياسين، السلطة في الإسلام، : 44.
6. أركون الفكر الإسلامي، نقد واجتهاد، ترجمة وتعليق، هاشم صالح، دار الساقى، بيروت ولندن، ط3، 98.
7. حسن حنفي، علوم التأويل بين علوم التأويل بين العامة والخاصة : قراءة في بعض أعمال نصر حامد أبوزيد، الجمعية الفلسفية المصرية، ع3، يونيو 1994، السنة 3، 76.
8. نصر حامد، الخطاب والتأويل، المركز الثقافي العربي، البيضاء وبيروت، ط1، 2000، 181.
9. نصر حامد أبوزيد، مفهوم النص : دراسة في علوم القرآن، المركز الثقافي العربي، البيضاء وبيروت، ط 5، 2000، 234.
10. محمد عابد الجابري، العقل الأخلاقي العربي، العقل الأخلاقي العربي : دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم الثقافة العربية، دار النشر المغربية، ط1، 2001، 230.
11. عبد الكريم، سروش، مطارحات في القبض والبسط، قضايا إسلامية معاصرة، ع19، 2002.
12. محمد عابد الجابري، بنية العقل العربي : دراسة تحليلية نقدية لنظم المعرفة في الثقافة العربية، المركز الثقافي العربي، ط1، البيضاء 1986، 121.
13. الغزالي المستصفى من علم الأصول، ج1، 189.
14. علي حسب الله، أصول التشريع الإسلامي، دار المعارف، مصر، ط5، 1976.
15. الغزالي المستصفى، المطبعة الأميرية، بولاق، 1322 هـ. ج1، (بذيله فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت).

16. محمد جمال باروت أحمد الريسوني، الاجتهاد : النص، الواقع والمصلحة، دار الفكر سوريا، ط1، 2000، 124.
17. دراسة نقدية لبعض المشكلات الكلامية من منظور لغوي منطقي، ص : 44 – 45.
18. بولس الخوري، في فلسفة الدين، 72 – 73.
19. الشرفي، الإسلام بين التاريخ، الإسلام بين الرسالة والتاريخ، دار الطليعة، بيروت، ط.2001، 1، 153.
20. السيد ولد أباه، التأويل والتنوير : دراسة في مشروع نصر حامد أبو زيد، إضافات الجمعية العربية لعلم الاجتماع، القاهرة، عدد 2 يناير 1999.